سنوات طويلة إلى أن يُصبح جاهزاً لمواجهة الدنيا. وكان عليه بانتظار ذلك أن يحيا في المراءاة والتظاهر والتخفّي. ولقد اتّبع ذلك بشدّة على كل حال، وعندما كان يَحْدُث أن يفقد الشجاعة أو المواظبة فإنّه كان يردّد في نفسه: «إنه بمحاكاة حركات الناس يتعلّم المرء عدم جدواها».

ومع ذلك فقد بقي مضمارٌ كان يحرص فيه «ماني» على عدم التظاهر. فمن بين جميع أبنية البستان كان هناك واحد، المكتبة، لم يكلّ قطّ عن اجتياز عتبته. والمؤسف أنّ «سيتايي» كان قد اختار الإقامة في ذلك المبنى بالذات. ولم يكن يشغل منه غير خليّة متواضعة جداً. ولكنّه كان هناك على كل حال، قريباً جدّاً من الكتب والقرّاء. ولم يكن أحد ليزعج «ماني» ما دام مرجعه مقتصراً على المؤلّفات التي كان «الأب» يوافق عليها. ولكنْ ما إن تُسَوِّلُ له نفسه تصفُّحَ مخطوطات أخرى حتى يكون على ثقة من قدوم «سيتايي» أو أحد «الإخوة» القائمين على خدمته، في الدقائق التالية، وهما يلوّحان بالتهديدات واللعنات.

والحقّ أن المؤلّفات المسموح للمريدين، ولا سيّما أصغرهم سنّاً، بأن تصل أيديهم إليها كانت نادرة في هذه المكتبة الغنيّة إجمالاً وغير المُنْتَظَر العثور عليها في ركن منعزل من وادي «دجلة». وكان يكفي أن يكون المؤلّف وثنيّاً لكي يُحكم بالطبع على كتاباته بأنها مُلْحِدة. والمؤلّفات الوحيدة التي لم يكن يشملها الحظر هي بعض الأبحاث القديمة في الطبّ والنبات والنجوم والرحلات. وإذا كان المؤلّف يهودياً فإنه ينبغي التأكّد ممّا إذا لم يكن قد قدّم ـ على غرار «إبراهيم» ـ قرابين من الحيوان على أحد المذابح، ولا وافق بشكل خاصّ على مثل هذه الممارسات؛ وهذا يُفَسِّر أن «التوراة»، كما كانت تُقرأ في بستان النخيل، قد بُتِر جزء لا يُستهان به من نصوصها. وإذا كان المؤلّف في نهاية المطاف مسيحياً فإنه يُواجَه على الفور بشُبُهات قاسية في الهرطقة؛ وعليه فإنّ من بين الأناجيل العشرين التي كانت المكتبة تملك نسخاً منها، ظل إنجيلان أو ثلاثة فقط مسموحاً بها، وأما الباقي فكان يكاد يُعتبر أحسن من رسائل «بولس الطرسوسي» الذي لم يُغْدِقْ عليه أفراد الجماعة قطّ نعت «القدّيس»، وإنما نعوت